المحظرة الشنقيطية: نشأتها وخصائصها ودورها في نشر العلم

The Chinguetti Mahadra: Origins, Characteristics and Role in Spreading Knowledge

د. إزيدبيه الامام: الجامعة الإفريقية العربية الإسلامية

د. جمال غدور: جامعة نواكشوط، موريتانيا

Dr. Izidbih Limam: African Arab Islamic University

Email: zyidbih2014@gmail.com

Dr. Jamal Ghaddour: University of Nouakchott, Mauritania

Email: gadour222277@yahoo.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v3i4.202

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم تعريف بالحياة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط من خلال الحديث عن المحظرة الشنقيطية باعتبارها صرحا علميا وحضارياً وجامعة متنقلة ساهمت في نشر الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا والمحافظة عليهما، ومركزاً للإشعاع الثقافي والحياة العلمية في المنطقة، وقلعة ممانعة ظلت صامدة في وجه السياسة الفرنسية الهادفة إلى طمس هوية المجتمع. كما أن النهضة الثقافية التي عرفتها بلاد شنقيط خلال فترتها الذهبية ليست سوى حسنة من حسنات المحظرة. وتأخذ الدراسة أهميتها من أهمية المحظرة الشنقيطية كونها مؤسسة تعليمية خاصة تميزت بها البلاد واختصت بها دون باقي الأقطار الإسلامية، وأسهمت في نشر العلوم الشرعية والآداب العربية، هذا فضلا عن دورها في استمرار الحياة الفكرية والعلمية بالبوادي النائية، وتوصيل رسالتها الحضارية في إشاعة العلم، وإعداد جيل من العلماء والفقهاء في ظل الظروف الطبيعية القاسية. وقد توصلت الدراسة إلى أن نظام المحظرة الشنقيطية يُعد ظاهرة خاصة بالبلاد الشنقيطية؛ ذلك أنها تتصف بالمرونة المتناهية، وذلك لظروف الصحراء وطبيعة تنظيمها وأساليب التعليم فيها. وأنها أفلحت وبشكل لافت حقا في نشر العلم والحفاظ عليه، لذا فإنه من الضروري جدا المحافظة عليها وتطويرها على نحو يجعلها قادرة على أداء مهامها وفقا لمتغيرات العصر الحاضر، وهذا ما يتطلب من الدولة والمجتمع دعم وتشجيع هذه المؤسسة حتى لا تندثر!

الكلمات المفتاحية: المحظرة الشنقيطية، موريتانيا، العطاء العلمي للشناقطة.

Abstract

This research attempts to demonstrate the scientific and cultural life in the country of Chinguetti (Mauritania) by exploring the characteristics of the Chinguetti Mahadra as a scientific and mobile university that contributed to spreading Islam and the Arabic language in West Africa and strengthening it. Al-Mahdara is considered a center that emphasizes Islam norms and plays a vital role against the French policy that aimed to obliterate the society's identity. Also, the cultural renaissance that the Chinguetti country witnessed during its golden period is due to the efforts of the Mahdara. This study is significant because it reveals the importance of the Chinguetti Mahadra as a private educational institution that distinguished the country

from the rest of the Islamic countries by its unique scientific methodology. This research found out that the Chinguetti Mahadra is a phenomenon specific to the Chinguetti country since it is characterized by the flexibility of studying and teaching to cope with the conditions of the desert and its nature. Also, it has remarkably succeeded in spreading various sciences. Therefore, it is indispensable to preserve and develop this kind of university to perform its tasks following the changes of the present era. The government and society should support and encourage this institution to sustain itself.

Keywords: Chinguetti Mahadra, Mauritania, Chinguetti scholars.

المقدمة:

تُعدّ بلاد شنقيط منارة علميّة رائدة في مجال العلم الشّرعي على وجه الخصوص، لما أنتجته من علماء أجلّاء دأبوا على التّحصيل والتّأليف، حيث تُعتبر المحاظر بالنسبة إلى المجتمع الشنقيطي هي المحور الوحيد الذي يدور حوله ما يتعلق بالبلد من علم وثقافة وهوية ومجد، فتاريخ هذه البلاد تاريخ محاظر، لأن المحظرة عبارة عن ثقافة الأمة الشنقيطية وهويتها.

وقد ارتبطت المحظرة في بلاد شنقيط بدخول الإسلام إليها، ومع أننا لا نجد في المصادر التي بين أيدينا تاريخا محددا لنشأة هذا النظام التربوي في البلاد إلا أننا نرجح أنها لم يطلق عليها هذا الاسم "المحاظر" إلا في القرن السادس الهجري وإن كانت النشأة تعود إلى نهاية القرن الخامس الهجري، ويمكن تحديد الزمان والمكان لهذه النشأة كالتالي:

كانت البدايات الأولى مع ظهور تعاليم الدين الحنيف في منطقة الصحراء على يد الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي [1] خلال القرن الخامس الهجري الذي استطاع أن يحرر ساكنة الصحراء من رقبة الجهل، ومثّل ذلك النواة الأولى للمحظرة.

[1] – عبد الله بن ياسين داعية ومجاهد وواضع الأسس الأولى لحركة الرابطين توفي سنة451هـ.

ثم اتسعت دائرة المد العلمي لصحراء الملثمين بقدوم الإمام الحضرمي(489هـ)[1]، وإبراهيم الأموي(772هـ)[2] مع أبي بكر بن عمر اللمتوني(480هـ) الذي اصطحبهما من أغمات وأريكة، فانتشر على أيديهما علم كثير.

ثم أخذت الحواضر العلمية تتأسس على أيدي علماء أفذاذ كالشريف عبد المؤمن[3]، والحاج عثمان [4]، وتلميذه القاضي عياض [5]، الذين أسسا حاضرة تشيت وحاضرة وادان سنة 536هـ[6]، ثم تأسست شنقيط الثانية التي عنونت البلاد سنة 660هـ/ 1262م[7]. ثم يأتي فيما بعد دور يحيى الكامل المحجوبي [8] في ولاته في صدر القرن 8 هـ أو قبيله.

ولم تمض فترة وجيزة حتى صار لكل حي بدوي محظرته الخاصة به، فأقبل الناس على العلم في شغف منقطع النظير، وأصبح العلم والبحث فيه ومطاردة شوارده غاية اللذة ومنتهاها عند أولئك العلماء.

ثم بعد ذلك بدأت المحاظر تنتشر في طول البلاد وعرضها متنقلة من البادية إلى المدينة من أجل الاستقرار؛ لأن العلم والثقافة محتاجان إلى الحضر، لكن أيضا أثبتت المحاظر عكس هذه القضية حيث نشأت أساسا في البادية[9].

---

[1] – هو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي، فقيه متكلم ومنظر سياسي وشاعر درس بالأندلس وكان بأغمات وريكة، عندما مر أبو بكر بن عمر عائداً من المغرب إلى الصحراء، استشهد ودفن بآزوكي قرب مدينة أطار، انظر: النحوي، الخليل (1987). بلاد شنقيط المنارة والرباط. تونس: المنظمة العربية للثقافة والعلوم. ص:512.

[2] – كان معلماً وقاضياً في مجلس الأمير وهو جد قبيلة مدلش الموجودين اليوم بدائرة الترارزة، انظر: حياة موريتانيا، المختار بن حامد المختار بن حامد: موسوعة تاريخ موريتانيا، جزء الثاني، الجزء الثقافي، ص5.

[3] – هو الشريف عبد المؤمن بن صالح بن عبد العلي بن جعفر مؤسس قرية تيشيت، وجد شرفائها المعروفين، انظر: ابن حامد، المختار. حياة موريتانيا، (الحياة الثقافية)، نواكشوط: الدار العربية للكتاب، ج2، ص5.

[4] – هو الحاج عثمان الأنصاري جد بعض بطون إدوالحاج وأحد مؤسسي قرية وادان وكان هو وسابقه يسكنان في أغمات، ينظر: المصدر السابق، ص: 5.

[5] – هو أبو الفضل القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمّد أبن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (476هـ -544هـ/1083–1149 م)، عالم كبير، له مجموعة كبيرة من المؤلفات.

[6] – ابن حامد، المختار. (ب. ت). حياة موريتانيا (الحياة الثقافية)، الرباط: الدار العربية للكتاب، ج2، ص:6.

[7] – (م. ن).

[8] – يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، كان مقدما في أهل بيته، خرج متنكرا في أيام الرشيد حتى ورد بلاد الديلم، جد قبيلة لمحاجيب المعروفة محليا، أسس مدرسة ولاته ونشر فيها العلم. انظر: الأصفهاني، أبي الفرج. (1307هـ). مقاتل الطالبين، شرح وتحقيق أحمد صقر، لبنان: المكتبة الحيدرية، ص288.

[9] – محمد الصوفي محمد الأمين، (1986م). المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني: الرياض: رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، ص34.

لقد فرض علينا البحث في مسيرة المحظرة الشنقيطية باعتبارها مؤسسة تعليمية التنقيب في مصادرها الشحيحة –أحيانا– للكشف عن إشكالية مهمة تمت صياغتها على شكل الأسئلة التالية:

- كيف كانت طبيعة مسيرة المحظرة الشنقيطية؟
- وما هي العوامل التي أثرت في ديمومتها؟
- وكيف وقفت في وجه محاولات طمس الهوية والاستعمار الثقافي الفرنسي؟

المبحث الأول: المحظرة الشنقيطية .. المفهوم والخصائص

مثّل مفهوم المحظرة عند الشناقطة عنوانا على الرقي والاشعاع الثقافي وفضاء للتحصيل والتعليم؛ فهما هو تعريف المحظرة الشنقيطية وما هي الخصائص المميزة لها؟

أولا: مفهوم المحظرة الشنقيطية

من الصعب تقديم تعريف جامع مانع للمحظرة لأنها ظاهرة متميزة اخترعها الشناقطة، إذ ليس هناك حَدٌّ دقيق يُعرِّف "المحظرة" رغم أنّها وُجدت في بداية تكوّن المجتمع الشّنقيطيّ. ويعود اشتقاق الكلمة إلى أصل ثلاثي هو (ح ظ ر) أو (ح ض ر)، فالأول رأي أحمد بن حميد [1]، ويستعملها الدكتور محمد المختار بن اباه [2] في كتابه تاريخ النحو العربي كذلك بالظاء دائما؛ فهي عندهم محظرة بالظاء، من "حظر الشيء، وعليه: منعه، وحجر، واتخذ حظيرة، كاحتظر، والمال: حبسه فيها، والشيء: حازه، والحظيرة: جرين التمر، والمحيط بالشيء خشبا، أو قصبا، والحِظار ككتاب: الحائط، ويفتح، وما يعمل للإبل من شجر ليقيها البرد، وككتف: الشجر المحتظر به..." [3].

بينما يرجح محمد سالم بن عدود[4] الثاني، ويستشهد لذلك بقول لبيد:

---

[1] – النحوي، الخليل. (1987). المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس: المنظمة العربية للثقافة والعلوم. ص: 61.

[2] – الدكتور محمد المختار بن اباه (1924–2023م)، عالم باحث أكاديمي وشاعر، جمع بين ميزتي التعليم المحظري الموسوم بالحفظ والإتقان، والتعليم المعاصر الموسوم بالتنظيم والتمكن في مجال البحث، أول موريتاني يحصل على دكتوراه دولة، وكان ذلك من جامعة السوربون سنة 1975م، له بحوث ودراسات رائدة، درّس في عدة جامعات، وشغل عدة مناسب سياسية محلية ودولية وقد عمل وزيرا للحصة في أول حكومة في البلاد، عمل رئيسا لجامعة شنقيط العصرية التي أنشأها سنة 2006م.

[3] – الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. (2005م). القاموس المحيط، لبنان: مؤسسة الرسالة، ط8، مادة (حظر)، ص: 377.

[4] – هو العلامة محمد سالم بن محمد عالي بن عبد الودود المباركي الهاشمي، اشتهر بعدود خاتمة الحفاظ، وصفه بعض من لقيه بالمكتبة المتنقلة، اتقن علوم الشرع والآلة وثقف الأنساب، فقلّ من لقيه إلى نسبه إلى أصوله، وله اطلاع واسع على علوم العصر واللغات الأجنبية، نظم مخصر خليل مع إضافات وتصويبات في 17681 بيتا، سماه "التسهيل والتكميل"، ولد سنة 1348هـ وتوفي 1430هـ.

أَقْوَى وَعُرِّيَ وَاسِطٌ فَبَرَامُ ** من أهله، فصوائقٌ فَخِـــــزَامُ

فالواديانِ[1] فكلُّ مَغْنًى مِنْهُمُ ** وعلى المِيَاهِ "مَحَاضِرٌ" وَخِيامُ[2]

كما أنها وردت بالضاد بمعنى المدرسة في مراجع تاريخية وفقهية [3]، ويشهد له أيضا الاستعمال الدارج على ألسنة العامة من إبدال الضاد ظاء في كثير من الكلمات، وهي بهذا المعنى من حضر كنصر وعلم حضورا وحِضارة: ضد غاب... والحَضَر محركة، والحضْرة والحاضرة والحِضارة ويفتح: خلاف البادية..." [4]، وفي التهذيب قال الليث: الحضرة قُرْب الشيء تقول كنت بحضرة الدار وأنشد:

فشلت يداه يوم يحمل راية ** إلى نهشل والقوم حضرة نشهل [5].

فمن قائل إنّ أصلها "المَحْضَرَة"، ولكن أبدلت الضّاد فيها ظاء؛ لأن العربية الحسّانية "اللهجة المحلية" لا تميّز بين الضّاد والظّاء، وقلّما تنطق الأوّل، فنطقتها حينئذ هكذا، وأصلها المكان الّذي يحضر فيه النّاس على الميّاه في أوقات الحرّ حين تجفّ المراعي، ولا يمكن انتجاعها لبُعدها عن الماء.

فمن هذا المعنى جاءت "المحظرة"، فهي في الواقع مكان للحضور.

وقيل إنّ لفظها مشتقّ من "المَحضر"؛ وهو اسم مكان لمجموعة من الحظائر يحيط بها الطّلاب أماكنهم، أو هي مكان الحظر الذي هو التّحريم، إذ يُحظر أن يؤتى في ساحتها تصرّف يحظره الشّرع.

وقد انتهى الباحث الخليل النحوي إلى ترجيح اشتقاقها من الحُضور؛ حيث يقول: "وهكذا نرجّح أنّ أصل الكلمة بالضّاد لا بالظّاء".

فالمحظرة في اشتقاقها اللغوي اسم مكان على وزن مفعلة ويمكن أن تكون:

1- واسط، وبرام، وصوائق، وخرام، والواديان، كلها مواضع معروفة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج: 4، ص: 198.

2- ابن ربيعة، لبيد. (2004م). ديوان لبيد بن ربيعة. بيروت: دار المعرفة، ط1، ص: 105.

3 - النحوي، الخليل. (1987م)، مصدر سابق، ص: 61 – 62.

4 - قال في تاج العروس: يقتضي أن حضر كلم مضارعه على قياس ماضيه فيكون مفتوحا كيعلم، ولا قائل به، بل كل من حكى الكسر صرح بأن المضارع لا يكون على قياسه. ج11، ص: 27.

5 - الفيروز آبادي: (2005م)، مصدر سابق، مادة (حضر)، ص: 376.

- الكلمة مشتقّة من فعل، حظر أي منع بوسيلة مادية أو معنوية. فهي ماديا الحظيرة التي كثيرا ما كانت تحيط بخيمة شيخ المحظرة ومصلاه وعرائش طلبته لحمايتها من الحيوانات، وتقام هذه الحظائر عادة فور حلول المخيم بأي مكان جديد يتم النزول فيه.

أمّا من الناحية المعنوية فقد يتّصل هذا الاشتقاق بالحظر الذي يمارسه الشيخ على الطالب المحظري بمنعه من التجوال داخل الحي والاختلاط بأهله والانغماس في مشاغلهم الدنيوية وإلزامه بالإقامة في أعرشة الطلبة والتفرّغ للعلم؛ أو هو متأت من الهيبة والحماية الروحية التي يتمتّع بها شيخ المحظرة ومؤسسته وحتى طلابه.

– أو أن تكون مشتقّة من فعل حضر أي مكان حضور المحاضرة، وقد يكون هذا الحضور كذلك ماديا أو معنويا، فهو مادي لأّن الطالب يحضر بجسمه محاضرة الأستاذ، ومعنوي، لأن فيه تجرّدا من الدنيا وهمومها وإقبالا على التعلّم والتعليم خالصا لوجه الله تعالى [1].

وبالنظر إلى ما تحويه المحاظر من تدريس لعلوم الشريعة وعلوم الآلة فيمكننا تعريفها اصطلاحيا بأنها: جامعة علوم شرعية ولغوية متنقلة أحيانا، تقوم في الغالب على شيخ واحد، وقد يساعده أخرون، تنتهي في بعض الأحيان بموت الشيخ المؤسس وقد تمتد في عقبه.

أمّا اصطلاحا فقد حاول البعض تعريفها بأنّها: "جامعة شعبيّة بدويّة متنقلة تلقينية فردية التعليم طوعيّة الممارسة".

ومن خلال هذا التّعريف يمكن أن نخلص إلى أنّ المحظرة الشنقيطية: "مؤسّسة تعليميّة مفتوحة تزاول أنشطتها المعرفيّة في جوّ من الانضباط والاستقامة، تغطي مختلف مراحل التّعليم، تعمد أساليب الإلقاء والتّلقين، ومظاهر الحفظ والاستظهار، يسهر على مصالحها شيخ عالم حِسبة لله تعالى".

وبذلك نعلم أنّ "المحظرة" ظاهرة شنقيطية خاصة، أملاها الواقع الشنقيطي وأوجبتها الظّروف، فهي تمثل عند الشناقطة عنوانا للرقي والاشعاع الثقافي وفضاء للتحصيل والعلم[2].

ثانيا: خصائص المحظرة الشنقيطية:

تتميز المحظرة الشنقيطية عن غيرها من الكتاتيب في العالم الإسلامي، والمدارس والجامعات في العصر الحاضر بعدة خصائص وسمات، منها:

[1]– محمدن، محمدو (2005م). المحظرة الموريتانية ودورها في غرب إفريقيا، مجلة البحوث والدراسات العربية، ص48–49.

[2]– الامام، إزيدبيه محمدنَ. (2022م). المحظرة الشنقيطية .. حفريات في تاريخ التعليم الإسلامي في موريتانيا، تونس: دار الإمام المازري، ط1، ص: 26–29.

1. تعتبر المحظرة بمثابة جامعة حديثة، فهي تضم مختلف العلوم بشكل موسوعي، فتدرس القرآن حفظا ورسما وتجويدا وتفسيرا، والحديث متنا وسندا ومصطلحا، والعقيدة وعلم الكلام والسيرة والتاريخ والانساب والأخلاق، واللغة والأدب والنحو وغيرهم[1].
2. لا ترد طالبا مهما كان عمره ومستواه العلمي أو منزلته الاجتماعية. فالمحظرة لا ترد طالبا لعدم وجود مقاعد شاغرة، ولا لقلة المنتسبين إليها، وإنما يكثر رواد المحظرة تبعا لصيت شيخها ومدى تفرغه.
3. أنها بدوية متنقلة، فقد ازدهرت المحاظر وتبلورت في رحاب البادية، وكانت مترحلة متقلبة تقلب البدو في منتجعاتهم ومسارح إبلهم وابقارهم[2].
4. أنها تقوم على الطريقة التلقينية، وهي الطريقة التي كانت متبعة منذ صدر الإسلام حيث كان العلماء يعتمدون على الرواية والسند، فصارت الرواية أم الدراية بالنسبة للشناقطة، وربما يرجع الأمر إلى ندرة الورق والكتاب، فاعتمدوا على المنهج التلقيني.
5. عمر المحظرة غير محدود: قد تعيش المحظرة زمنا طويلا وقد تموت بموت شيخها، وإنما تعيش عمرا طويلا إذا ورثها أبناء الشيخ وطلبته الذين تخرجوا على يده، وقد يبقى اسم المحظرة قائما، وقد يستبدل باسم جديد فيتوهم البعض أنها محظرة جديدة والحقيقة أنها وليدة العتيقة واستمرار لمحظرة الشيخ الذي قضى نحبه أو أصابه عارض.
6. وقلما يتقاعد شيخ المحظرة وإنما يتوقف عن التدريس لعامل خارج عن إرادته ويبدأ التدريس في زهاء العشرين من عمره متدربا على شيخه الأول الذي يأذن له بالتدريس في محظرة خاصة به.
7. طوعية الممارسة: تقوم المحظرة على أساس من التطوع والمبادرة الحرة في الدراسة والتدريس معا. أما الشيخ فيبذل جهده العلمي بدون مقابل، وقد يتلقى الهدايا والهبات ولكنه يأنف أن يطلب عوضا عن عمله، فهو يبذل علمه بسخاء، يستفيد منه الطالب الموسر والمعسر على حد سواء[3].

المبحث الثاني: ميزة المحظرة الشنقيطية ودورها في نشر العلم

أوّل ما يلفت الانتباه في المحظرة الشنقيطية هو ظاهرة "الكمّ" الّتي تميّز "المحظرة"، وتتمثّل في عدد هائل من المعلومات والنّصوص محفوظة عن ظهر قلب، مع ما أُضيف إليها من طُرر وأنظام. كلّ ذلك لابد أن يحيط العالم (المدّرس) به علما؛ حتّى يُصبح قادرا على أن يقول لأيّ طالب: "قُولْ" أو "مَشِّ" (أي قل، ابدأ)، دون أن يعرف مُسبقا ما ذا سيُقرأ عليه.

[1] – النحوي، مصدر سابق، ص: 53.
[2] – المصدر السابق، ص: 55.
[3] – النحوي، مصدر سابق، ص: 60.

ولعل من أبرز مميزات وخصائص المحظرة الشنقيطية ترسيخ الثقافة الإسلامية. كما تميّزت "المحظرة" في بلاد شنقيط بميزات عديدة لعلّ من أبرزها:

1. **الجامعية:**

تمتاز "المحظرة" بأنّها مؤسّسة جامعة تقدّم للطّالب معارف موسوعيّة في مختلف فنون المعرفة الموروثة، يتدرّج الطّالب في دراستها من مستوى ابتدائيّ إلى أعلى مستويات التّخصص.

2. **الحرية:**

فالطّالب المحظريّ يتمتّع بحريّة اختيار "المحظرة" الّتي سينتسب إليها، والشّيخ الّذي سيدرس عنده، والمادّة والمتن اللّذين يرغب في دراستهما، والفترة الزّمنيّة الملائمة لدراسته. وتسمح هذه المساحة الواسعة من الحريّة بمستوى من تحقيق الذّات، يجعل جُلّ الطّلاب يتعاطفون تعاطفا وجدانيا مع محيطهم المحظريّ.

3. **الاهتمام بالطالب:**

فالمحظرة تكاد تكون الفضاء الوحيد الّذي تذوب فيه مختلف أشكال التّمايز الطبقيّ والعرقيّ، إذ يتحدّد الانتساب إليها بالرّغبة والاستعداد دون اعتبار المكانة الاجتماعيّة أو فوارق السّن؛ فالرّجل الطّاعن في السّن قد يدرس مع الشّباب، كما أنّ الشّاب اليافع قد يتولّى تدريس من هم أسن منه.

هذا فضلا عن عدم اعتبار المستوى الماديّ، إذ لا فرق بين غنيّ وفقير، بل إنّ المحظرة طوّرت آليات تبنّاها المجتمع مع اختلافات جزئيّة بين نواحي البلاد، لعلّ من أهمّها:

- "التّأبيد" الّذي يقتضي التّكفل بالطّالب المغترب أو المُعدِم.
- "الخَتْمَة" الّتي تُوجب تقديمَ هدايا للتّلاميذ كلما تقدموا مراحل معينة في دراستهم.
- "شاةُ التّلاميذ" الّتي تُقدم لهم في مناسبات اجتماعيّة معيّنة؛ مثل الزّواج والعقيقة. وتُجسّد هذه "الحقوق" مستوى مّا من التّكافل يضمن التّعليم لمن يرغب فيه.

4. **المجانية:**

- الانتساب إلى هذه "المحاظر" لا يتطلب رسوما.
- الميسورون يدرسون على نفقة ذويهم.
- المُعدِمون يُنفق عليهم شيخ المحظرة، أو بقيّة الحيّ، أو يتقاسمون مع زملائهم الميسورين.

- وتُجسّد هذه "المجّانيّة" درجة كبيرة من التّآزر الاجتماعي واهتمام المجتمع بطالب العلم الشرعي[1].

أقسام المحاظر الشنقيطية

تنقسم المحاظر إلى ثلاثة أنواع:

- المحاظر القرآنية: وهي محاظر خاصة بتدريس القرآن الكريم، ويلج إليها الطفل مبكرا، وتنتهي هذه المرحلة بإجازة سن متصل.
- المحاظر العلمية: وهي المقصودة عند إطلاق لفظ المحظرة في المجال الشنقيطي، وفيها تدرس مختلف العلوم اللغوية والشرعية، وتكون عادة تحت إشراف شيخ كرس حياته للتدريس، وينتسب لها عند البلوغ إلى الأربعين، وخلال الخمسة والعشرين عاما يظل الطالب يجمع العلوم ليتخرج عالما، أو شيخا.
- المحاظر الأسرية: حيث لا يخلو حي من أحياء الزوايا من محظرة أهلية، كما توجد خيمة لمرابط عند القبائل الحسانية.

وهناك محاظر للفتيات يتعلمن فيها قبل سن البلوغ [2].

العوامل التي أثرت على واقع المحظرة:

لقد مرت المحظرة بمحطات هامة أثرت عليها سلبا وايجابا تأثيرا وتأثرا، ولعل الدارس يدرك دون عناء كبير أن هذه العوامل يمكن أن تلخص في النقاط التالية: الاستعمار، ظهور المدرسة الوطنية كمزاحم للمحظرة، الجفاف الذي قوض أركان الحياة الاقتصادية البدوية، الانتقال من الريف إلى الحضر بسبب الجفاف.

فيما يلي نقف على كل من العوامل الأربعة وقفة عجلى في غير إخلال:

1) **الاستعمار:**

الاستعمار هو الذي لم يدخر أي سبيل من أجل القضاء على المحظرة والتلبيس على الروح البدوية النقية وإرباك النفسية المتزنة المصابرة التي كان ينمو فيها حب العلم والإباء والشموخ. وضيق الخناق على المحاظر ـ مؤسسات وأشخاصا ـ ملوحا بالسلاح حينا وناثرا للحب حينا آخر، لعل

[1] – الامام، إزيدبيه محمدنَ. (2022) مصدر سابق، ص39–42.

[2] – علي سالمان، علي بدوي. (2003م). الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، القاهرة: رسالة ماجستير غير منشور، معهد البحوث والدراسات الافريقية، ص132.

المعوزين يلتقطونه، وفي ظل الاستعمار فقدت المحظرة طاقة محسومة هي شيوخ المحاظر الذين حملوا السلاح ضد المستعمر فمنهم من قتل ومنهم من هاجر.

وقد استطاعت المدارس الفرنسية أن تزاحم ولو قليلا المحاظر مستغلة الجانب المادي والاقتصادي الذي أمال الكفة لصالح المدارس الغربية كما حاولت تلك المدارس ادخال مناهج عربية لمحاولة الغزو الفكري والثقافي لمن يتبنوها؛ لكن المحظرة خرجت من كل هذا منتصرة وإن كانت أصيبت بشرخ نسبي.

2) ظهور المدرسة الوطنية كمزاحم للمحظرة

بعد سنوات طويلة من الجفاء بين المحظرة والمدرسة الاستعمارية وبعد حصول موريتانيا على الاستقلال ظهرت المدرسة الوطنية كبديل وكمزاحم للمحظرة التي ظلت لقرون عديدة تتولى عملية تثقيف الاهالي ومن جهة أخرى فإن المعطى الذي توفره المدرسة من حيث العمل والراتب ظل يؤثر بشكل كبير على أعداد رواد المحظرة وظل التسرب هو السمة البارزة في تعاطي الأهالي مع المحاظر.

3) الاستقلال:

في ظل الاستعمار كانت المحظرة المتحدي القوي للمستعمر الذي لا تزيده هجماته وضرباته إلا تحفزا وتحصنا، ولقد صان المجتمع للمحظرة مكانتها لتصون له دينه وهويته، وتحصن بها ضد المدرسة النظامية الاستعمارية التي يرى فيها صورة العدو الشرس.

أما بعد الاستقلال فلم يعد الناس يرون في المدرسة النظامية الخطر الذي كانوا يرونه، فقد صاروا يعتبرونها مدرسة وطنية، وبدأوا يبعثون بأولادهم إليها، ومنها إلى العمل في الدوائر الحكومية والخصوصية. وظهرت مع الاستقلال موجة من الحماس وصحوة سياسية كبيرة شدت أنظار الناس إلى بناء الدولة، وعصرنة الحياة، والخروج من واقع التخلف، وارتياد آفاق المجد الذي صارت المسؤوليات الإدارية والسياسية مرقاة من مراقيه، وهكذا أقبل شباب المحاظر إلى الدولة يطلبون في كنفها لقمة العيش وماء الوجه، بعد أن تناما الجهاز الإداري، الذي وضع المستعمر أسسه وانسدت أمامهم الأبواب الفسيحة التي كان المجتمع يفتحها لهم، وسلبوا ذلك الاعتبار الذي كان يتوجهم أمراء على الأمراء، فانحطت منزلتهم في سلم القيم الاجتماعية.

ووفرت المحظرة للدولة الفتية كفاءات بشرية جاهزة. لم تكن مدارس التعليم العصري قادرة على الوفاء بها، فالتقت حاجة رجال الدولة وحاجة رجال المحظرة، أولئك يريدون عونا في المهام الكبرى المنوطة بهم، وهؤلاء يريدون ارتياد آفاق الحياة الحديثة والمساهمة في بناء الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وقد ازدادت الألفة بين المحاظر والدولة على حساب المحاظر عندما خطت الدولة

خطوات على طريق التعريب، فقد مهد تعريب التعليم والقضاء السبيل أمام آلاف من رجال المحظرة للعمل في هذين القطاعين.

وهكذا أخذت الدولة المستقلة من المحظرة ما لم تعطها، وكانت المراكز الحضرية الإدارية التي نمتها الدولة عونا للتصحر والجفاف في استنزاف البادية معقل المحظرة.

4) الجفاف والتصحر:

كانت المحظرة تستمد قوتها المادية من ثمرات الاقتصاد البدوي ـ التنمية الحيوانية ثم الزراعة ـ فإذا نضبت هذه الموارد أو شحت انعكس ذلك على صحة المحظرة، فهي بنية ثقافية طوعها الشناقطة لبيئتهم الاقتصادية والاجتماعية، فكانت خلية في نسيج حضاري وإن لم يكن حضريا شاملا ومتكاملا، وكانت منيعة ضد البؤس والجوع إلا أنها تتأثر تأثرا مباشر باهتزاز الأركان الاقتصادية والاجتماعية للحياة البدوية والواقع بسبب الجفاف والتصحر.

تعرضت البلاد في العهود الأخيرة لدورات جفاف كثيرة أثرت سلبا على الحياة العلمية ومن اهمها جفاف 1942 الذي عرف محليا بعام الشدة، وجفاف 1969 الذي قضى على معظم الثروة الحيوانية في البلد.

5) استقرار البدو:

بعد أن كان المجتمع الشنقيطي مجتمعا بدويا يأنف الاستقرار ويفضل الترحال. وكان أهل الحواضر وقليل ما هم، يجددون عهدهم بالبادية فيخرجون إليها في مواسم عديدة، ظهر تيار –مع دخول المستعمر الذي ضاق ذرعا بحرية البدو وضربهم في فجاج الأرض حيث تستعصي رقابتهم– أنشأ أو عزز مراكز حضرية أحاطها بقدر من المغريات، وحاول اجتذاب السكان إليها.

لم يبق للبدو من ملجأ إلا المدينة فأقبلوا إليها يتسابقون أفواجا، كأنما يلاحقهم السيل العرم، بعد انتشار الجفاف وظهور دعائم اقتصادية تحولت بها المدن إلى مراع ومنتجعات لمن لا يملكون الماشية أو لا يجدون لها النجعة في البادية.

وكما أسلفنا فإن المحظرة بنية علمية وثقافية طوعها الشناقطة لتناسب ما هم عليه من بدو وترحال فإذا اقتلعت من البادية اقتلعت من التربة الطيبة التي تنبت فيها نباتا حسنا وأمست بين خطري المسخ والنسخ.

المحظرة والسياسة التعليمية الفرنسية:

سعت الإدارة الاستعمارية إلى فرض هيمنتها من خلال استحداث طبقة مشبعة بالثقافة الفرنسية، ستتولى هذه الطبقة توصيل أوامر الإدارة إلى مختلف شرائع المجتمع، وعموما فإنه يمكننا تخليص السياسة التعليمية الفرنسية في الاهداف التالية:

فرض لغة المستعمر وجعلها أداة التخاطب: ركز المستعمر على نشر اللغة الفرنسية بين صفوف السكان، وجعلها لغة التواصل ليس داخل الإدارة فقط وإنما بين العامة، وإذا كان قد نجح في الشق الأول، وهو جعل اللغة الفرنسية لغة تواصل مع الإدارة، فإنه لم يوفق بشكل كامل في الجزء الثاني، وهو جعلها لغة تواصل بين الموريتانيين، وإن كنا نعترف بوجود طبقة عريضة أصبحت من الناطقين بالفرنسية، خصوصا في المناطق المحاذية للنهر، والملتصقين أكثر بالنفوذ الفرنسي في السنغال.

وأخذ نشر اللغة الفرنسية في المجتمع حيزا مهما من تفكير القادة السياسيين الفرنسيين، وأعطوا تعليماتهم بضرورة فرضها على أكثر عدد ممكن من الساكنة المحلية، ففي الرسالة التي خاطب بها الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية، حاكم موريتانيا، نجده يدعوه فيها إلى أن تكون "الفرنسية مفروضة على أكبر عدد ممكن من الأهالي، وأن دراستها أصبحت إجبارية بالنسبة لكل من يطمح إلى زعامة مجموعة ما، ويجب علاوة على ذلك، أن نجد في كل قرية ومدينة بعيدة كانت أو قريبة من يتكلم بالفرنسية ليس فقط زعيمها، وإنما في صفوف مواطنيها... ويجب أن يتم ذلك بدون الوصول بهم إلى مستوى أكاديمي"[1].

حاولت الإدارة الفرنسية تصوير ما تقوم به من احتلال الأرض ومسخ فكر الإنسان – عن طريق الاحتلال العسكري، والثقافي، والاقتصادي الذي مارسته على السكان – على أنه عمل حضاري نبيل يسعى إلى إخراج الناس من ظلام التناحر والجهل، إلى ضياء التحضر والرقي، وعلى هذا الأساس فقد اتجه تعليم التاريخ والجغرافيا إلى البرهنة على أن فرنسا أمة غنية، وقوية قادرة على أن تصون هيبتها، وفي نفس الوقت عظيمة لنبل أفكارها، ولم تكن أبدا قد تراجعت في السابق عن تقديم تضحيات مادية وبشرية لتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها، أو من أجل استجلاب فوائد حضارية بالنسبة للشعوب المتوحشة [2] وقد أريد للتحضير أن يكون من خلال التعليم، وبالتالي أصبحت المدرسة إحدى قواعده الأساسية، وهذا ما بينه الحاكم العام لإفريقيا الغربية حين قال: "... إن حضارتنا

[1] – ابن إسلمو، حدامين (1992). التعليم في موريتانيا (1960–1990)، تونس: بحث لنيل شهادة التعمق في البحث، قسم اللغة العربية، جامعة تونس الأولى، ص19.

[2] – النحوي، الخليل. مصدر سابق، ص: 347.

عليها أن تنحني نوعا ما حتى تتلاءم مع نمط من الحضارة شبه بدائي، لا لترجع الأولى إلى مستوى الثانية وتنتهي المسيرة، ولكن لتعود إليها لتريها الطريق الذي تسلك، وإن التعليم هو السبيل الوحيد لذلك، وكل أنواع التعليم تساعد في الوصول إلى درجة أعلى من التحضر إلا التعليم الصوفي..." [1].

ويبدو أن السلطة الفرنسية مقتنعة بوجود عدو لها في الداخل، ليس على الساحة العسكرية والسياسية فحسب بل وعلى الصعيد الثقافي "وكل أنواع التعليم تساعد في الوصول إلى درجة أعلى من التحضر إلا التعليم الصوفي"، فإذا كانت المجموعة الحسانية وبعض المجموعات الأخرى قد اختارت خط المواجهة العسكرية، فإن مجموعات أخرى اختارت المقاومة الثقافية عن طريق توعية الناس بمخاطر التعليم الفرنسي، ومخاطر التقرب من الإدارة، وهو ما جعل الوالي الفرنسي يعمم التصور حول مرجعية التعليم التصوفي، وهو في رأينا لا يقصد التصوف بحد ذاته [2]، وإنما يقصد التعليم الأصلي "العتيق" أو الأهلي "المحاظر" كما يسميها السكان المحليون، فهذه المؤسسات الأهلية "المحاظر" عرفت بمعارضتها الشديدة للوجود الفرنسي وللمخططات الفرنسية بما في ذلك التعليم.

توفير العنصر البشري القادر على توصيل رغبات الادارة الاستعمارية: اتجه التعليم في البلاد إلى إعداد كادر يتولى مساعدة الإدارة في تدبير شؤون السكان، حيث تكون هذه الأطر المكونة من طرف الإدارة الفرنسية واسطة بين الأخيرة والأهالي، وعليه فإن التركيز في عملية اختيار هذه المجموعة، كانت تخضع في الغالب لكثير من المعايير ويأتي في مقدمتها "الشرف المكتسب بالولاة" ذلك أن الاستعمار راعى كثيرا التراتبية الاجتماعية وطبيعة المجتمع، فلا بد في المترشح لشغل كراسي الدراسة، أن يكون إما ابن شيخ قبيلة أو شيخ طريقة صوفية، أو ابن أمير في السابق.

ولكن مع ذلك فإن الإقبال على المدارس الفرنسية كان ضعيفا جدا، وهو ما جعل الإدارة تفرض على كل رئيس قبيلة أن يرسل أحد أبنائه إلى المدرسة، وكان معظم زعماء القبائل والمشايخ الدينيين يتهربون من هذا القرار، ويرسلون آخرين على اعتبار أنهم أبناءهم الأصليون، مع أن الإدارة الاستعمارية لم تدخر جهدا في إغراء الآباء والطلاب لجرهم إلى المدارس.

[1] – دي شاسيه. (2013). موريتانيا من 1900 – 1975، نواكشوط: ترجمة محمد بن بوعلية الغراب، منشورات دار النشر جسور، ص: 113.

[2] – للمزيد حول التصوف في البلاد راجع:

- بنت عمار، تربة. (2013.) التصوف في بلاد شنقيط، مرجعيته القرآنية ومناهجه التربوية، خلال القرنين 18–19، مكناس: أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة السلطان مولاي إسماعيل.
- ابن عبد الرحمن، عبد الله. (1992). التصوف وطرقه في موريتانيا، نواكشوط: حوليات المدرسة العليا للتعليم، العدد الأول، ص29–45.

ومن ذلك المرسوم الذي صدر في 12 يونيو 1906 والقاضي بصرف منحة شهرية قدرها 300 فرنك لكل شيخ محظرة يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعليم اللغة الفرنسية، ورغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها المحظرة ومشايخها جراء الأزمات الاقتصادية ومضايقة الإدارة الفرنسية، فإن أحدا لم يتقدم للاستفادة من هذه المنحة التشجيعية، وبالتالي فإن المرسوم ولد ميتا[1].

إن تجنب الإدارة الفرنسية للتصادم مع "مؤسسة المحظرة" واكتفائها بالتعامل معها في بعض الأحيان، ومحاولة كسب ود مشايخها عن طريق الهدايا وتسهيل عملية حجهم على نفقة الدولة الفرنسية أحيانا أخرى، لا يوحي برضاها أو بقبولها كخيار يفرضه الواقع جنبا إلى جنب التعليم الفرنسي الجديد، وإنما اتخذت السياسة الفرنسية طريقا آخر رأت أنه أسلم من الصدام مع هذه المؤسسة الدينية العريقة، يجعلها مع الوقت في قبضة الإدارة الفرنسية ومن تلك الطرق:

- محاولة كسب شيوخ وزعماء المحاظر، وتنفيذ بعض طلباتهم، لا على الشكل الذي يريد هؤلاء، وإنما على الوجه الذي يجعلهم يحترمون الوجود الفرنسي يدافعون عنه ويقتنعون به[2].
- تنظيم العبادات والشعائر الدينية التي كانت تشرف عليهم "المحظرة" ومشايخها، تحت غطاء شبه رسمي من طرف الاستعمار، وبالتالي تتحول العبادات والشعائر من حيز يربط بين ممارسيه قواسم مشتركة، إلى معاني مفرغة من محتواها، لا تستطيع الصمود أمام الوجود الفرنسي وسياسته المحكمة.
- ربط السكان بالمدرسة الفرنسية ولفتهم عن "المحظرة" ومؤسسات التعليم العتيق، وذلك عن طريق إغداق الهدايا والمنح على مرتادي المدارس أثناء فترة الدراسة، وإعطائهم مناصب قيادية في المجتمع بعد التخرج، مما يجعل البعض تحت ضغط صعوبة الحياة والبحث عن مصادر العيش يتجه إلى المدرسة وينفر من التعليم الأصلي أو "المحظرة".
- إصدار قرار يمنع إنشاء أي "محظرة" بدون ترخيص من والي موريتانيا، الذي يرفع الترخيص إلى الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية للمصادقة عليه، وحين يقتضي الأمر يرفع إلى وزارة المستعمرات الفرنسية في باريس[3].

[1] – النحوي، الخليل. مصدر سابق، ص: 345.

[2] – للمزيد حول مواقف الفقهاء من الإدارة الاستعمارية راجع: غدور، جمال. (2016). الفقهاء والسلطة الاستعمارية (بين دفعها والمدافعة عنها)، مجلة دراسات موريتانية، العدد الرابع، نواكشوط.

[3] – ابن إسلمو، حدامين. (1992). مصدر سابق، ص: 28.

الخاتمة:

بناء على ما سبق نستطيع أن نؤكد أن المحظرة الشنقيطية تعتبر نموذجاً فريداً وظاهرة خاصة بهذه البلاد؛ لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، فإطارها المكاني والبشري الذي ازدهرت فيه، وهو الإطار البدوي الذي يطبعه التنقل الدائم والترحال المستمر المخالف للتمدن والتعليم، ذلك أنها نشأت وتطورت كمحصلة لعوامل دينية وتاريخية وسياسية، حيث استطاع الشناقطة من خلال مؤسسة المحظرة أن يصلوا إلى مرحلة من العلم والثقافة لم يصلها غيرهم.

وقد مرت المحظرة بأدوار أدت إلى تراجعها، كانت نتيجة التحول الحضاري الذي انتقل به المجتمع الشنقيطي من طور إلى آخر خلال الحقبة الاستعمارية ومعاول الهدم التي سلطتها الإدارة الاستعمارية على المحظرة إضافة إلى موجة الجفاف الشديد التي ضربت البلاد، كل هذه العوامل كانت السبب في تراجع دور المحظرة ومكانتها.

ومع ذلك لا يزال العطاء العلميّ للمحظرة الشنقيطية ساريًا إلى يومنا هذا، وإن اعتراه بعض الفتور للعوامل السابق ذكرها. غير أن مستقبلها يبقى مرتبط بالرعاية والاهتمام التي تحظى بهما من طرف المجتمع أولا ومن الدولة ممثلة في الجهات الرسمية من جهة ثانية.

وبناء على ما سبق نستطيع أن نختم بنقاط شكلت خلاصة ما تطرقنا إليه في هذه الدراسة:

- إن نظام المحظرة الشنقيطية يُعد ظاهرة خاصة بهذه البلاد؛ ذلك أنها نشأت وتطورت كمحصلة لعوامل دينية وتاريخية وسياسية.
- إن المحظرة الشنقيطية لم تنشأ مثل بقية مؤسسات التعليم الإسلامي، ولكنها نشأت وتطورت في كنف القبائل الموريتانية في ربوع الصحراء.
- إن المحظرة الشنقيطية بحكم نشأتها وتطورها لا تتقيد بحدود المكان؛ إذ أنها مؤسسات متنقلة.
- تتصف المحظرة الشنقيطية بالمرونة المتناهية، وذلك لظروف الصحراء وطبيعة تنظيمها وأساليب التعليم فيها.
- أفلحت المحظرة الشنقيطية وبشكل لافت حقا في نشر العلم والحفاظ عليه، لذا فإنه من الضروري جدا المحافظة عليها وتطويرها على نحو يجعلها قادرة على أداء مهامها وفقا لمتغيرات العصر الحاضر، وهذا ما يتطلب من الدولة والمجتمع دعم وتشجيع هذه المؤسسة حتى لا تندثر!.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن إسلمو، حدامين (1992). التعليم في موريتانيا (1960–1990)، تونس: بحث لنيل شهادة التعمق في البحث، قسم اللغة العربية، جامعة تونس الأولى.
- ابن حامد، المختار. حياة موريتانيا، (الجزء الثاني: الحياة الثقافية)، الدار العربية للكتاب (ط1) نواكشوط.
- ابن ربيعة، لبيد. (2004م). ديوان لبيد بن ربيعة. دار المعرفة، (ط،). بيروت.
- ابن عبد الرحمن، عبد الله. (1992). **التصوف وطرقه في موريتانيا**، نواكشوط: حوليات المدرسة العليا للتعليم، العدد الأول، من صفحة 29 إلى 45.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. (ب. ت). لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- الأصفهاني، أبي الفرج. (1307هـ،). مقاتل الطالبين، شرح وتحقيق أحمد صقر، المكتبة الحيدرية (ط1) لبنان، بيروت.
- الامام، إزيدبيه محمدنَ. (2022م). المحظرة الشنقيطية .. حفريات في تاريخ التعليم الإسلامي في موريتانيا، (ط1). تونس: دار الإمام المازري.
- بنت عمار، تربة. (2013.) **التصوف في بلاد شنقيط، مرجعيته القرآنية ومناهجه التربوية، خلال القرنين 18–19**، مكناس: بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة السلطان مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس.
- دي شاسيه. (2013). موريتانيا من 1900 – 1975، ترجمة محمد بن بوعليبة الغراب، منشورات (ط1). نواكشوط. دار النشر جسور.
- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى. تاج العروس من جواهر القاموس. (ط2). الكويت.
- علي سالمان، علي بدوي. (2003م). الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، القاهرة: رسالة لنيل الماجستير في التاريخ، معهد البحوث والدراسات الافريقية.
- غدور، جمال. (2016). **الفقهاء والسلطة الاستعمارية (بين دفعها والمدافعة عنها)**، مجلة دراسات موريتانية، العدد الرابع، نواكشوط.

- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. (2005م). القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط8، لبنان، بيروت.
- محمد الصوفي محمد الأمين، (1986م). المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني. رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، الرياض.
- محمدن، محمدو. (2005م). المحظرة الموريتانية ودورها في غرب إفريقيا، مجلة البحوث والدراسات العربية.
- النحوي، الخليل. (1987). المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المنظمة العربية للثقافة والعلوم. (ط1). تونس.